الاستفهام المغلق في القرآن الكريم (مقاربة حجاجية)

د. ذيب بن مقعد العصيمي[1]

(قدم للنشر في ٠٧/ ٠٢/ ١٤٤١هـ؛ وقبل للنشر في ٢٥/ ٠٤/ ١٤٤١هـ)

المستخلص: يتناول هذا البحث الاستفهام المغلق في القرآن الكريم ويقاربه حجاجيًا، فالاستفهام المغلق الدال علىٰ التصديق تنحصر الإجابة عنه في الإثبات أو النفي؛ مما يقوي حجة الخطاب القرآني في استفهاماته للمتلقين، والاستفهام بطبيعته التساؤلية يحمل طابعًا حجاجيًا واضحًا، فهو يتيح المشاركة للمتلقي من خلال الإجابة التي يقتضيها الاستفهام، كما أنه يحمل طبيعة حوارية هي من صميم النظرية الحجاجية الحديثة القائمة علىٰ إتاحة الحوار والنقاش؛ إلا أن الاستفهام المغلق يقلل مسارات الخيار في الإجابة أمام المتلقي، مما يكون له الأثر في السيطرة علىٰ أحداث الحوار والتحكم في الخطاب. ويهدف البحث إلىٰ الكشف عن أهمية الاستفهام المغلق في القرآن الكريم ووظيفته الحجاجية، ويحاول تجلية ذلك من خلال الكشف عن الطاقة الحجاجية للاستفهام المغلق، وخاصية ذلك في أدواته (هل والهمزة)، ويحاول الكشف عن دلالات الاستفهام المغلق الحجاجية في القرآن الكريم: التقرير والنفي والإنكار والأمر والنهي من خلال تتبع طبقات الدلالة الحجاجية التي يحملها الاستفهام المغلق في تلك الدلالات. إن ما يكشفه هذا البحث جزء من إبراز إعجاز الخطاب القرآني، وقدرته علىٰ الإقناع من خلال البنية اللغوية التي تمتلك طاقة التأثير والإقناع، كما يكشف البحث الأدوات الحجاجية الكامنة في القرآن الكريم من قبيل السلم الحجاجي وقانون العبور وغيرها، فتلك الأدوات الحجاجية كان لها الأثر الأقوىٰ في توجيه دفة الخطاب القرآني المتجه إلىٰ أنواع من المخاطبين بهدف التأثير عليهم وإقناعهم، ومن خلال ذلك تبرز طاقة الخطاب القرآني الحجاجية.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام المغلق، الحجاج، التقرير، الإنكار.

* * *

(١) أستاذ البلاغة والنقد المساعد في قسم اللغة العربية، كلية التربية – جامعة المجمعة.

البريد الإلكتروني: theebb930@gmail.com

The Closed Interrogation in the Holy Quran (An Argumentative Approach)

Dr. Theeb Muqid Alosaimi

(Received 06/10/2019; accepted 22/12/2019)

Abstract: This study adopted a descriptive analytical method to investigate the closed interrogation in the holy Quran and to display its argumentative intended answer that is always limited to affirmation or denial consequently, which strengthens the argument of the holy Quran discourse. The closed interrogation with its interrogative intention, includes a clear argument form that allows the recipients to participate in the expected answer. In addition to that it includes conversational style in its nature which is considered a fundamental style of the modern argumentative theory that is based on enabling dialogue and discussion. However, the closed interrogation reduces the answering options of the recipient, such a style has the effect of controlling the discourse.

The research aims to reveal the importance of closed interrogation in the Holy Quran and its argumentative role. It also attempts to show the strength of the closed interrogation and the property of its questions such as (do/does and *Hamza*) and methods of questioning, such as approval, negation, denial and imperative. This has been investigated by the analysis of the verses of the holy Quran, consequently, the research reveals part of the miracle of the Quran discourse, and its ability to persuade through the linguistic structure and the power of its influence and persuasion. The results also show that the closed interrogation is an important argumentative phenomenon in the Holy Quran used to convince recipients.

Keywords: Closed interrogation, Argumentation, Approval, Denial.

❊ ❊ ❊

مقدمة

لعل من نافلة القول تأكيد الوظيفة الحجاجية التي يمارسها الخطاب مستغلًا إمكانات اللغة التعبيرية لحمل المخاطب علىٰ الاقتناع؛ لاسيما القضايا الحجاجية التي يقف منها المخاطب موقف الرافض أو الشاك، والقرآن الكريم جاء لبناء اعتقاد قائم علىٰ الاقتناع بأسلوب لغوي معجز، أسلوب يجعل المتلقي ينقاد إليه طوعًا لا إكراهًا. ولعل هذا الجانب الخفي في مقدرة القرآن علىٰ الإقناع بأدوات لغوية جعل قريشًا تحار في إطلاق الصفة المناسبة عليه، فلم يجدوا إلا الصفة التي تحمل ذلك التأثير الخفي أعني صفة السحر(١)، إن هذه السمة الحجاجية اللغوية الكامنة في أسلوب القرآن، والآخذة بألباب المتلقين له تعد من أهم سمات أسلوب القرآن الكريم، التي تحتاج إلىٰ إيضاح جوانبها المختلفة، فالحجاج «هو البديل عن العنف في نظرية الحجاج، إذ يمكن... أن نسعىٰ إلىٰ تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدىٰ وسيلتين: العنف أو الخطاب نقنع بواسطتهما الناس فيقتنعون، فاعتماد هذه الوسيلة أو تلك هو الذي يجعلنا ندرك علىٰ أحسن وجه الفرق بين حرية المعتقد والإكراه، وغني عن البيان أن القرآن هو من هذه

(١) قال السيوطي: «أخرج الحاكم عن ابن العباس، قال: جاء الوليد بن المغيرة إلىٰ النبي ﷺ فقرأ عليه القران، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له. قال: وماذا أقول! فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ عليه، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه. قال: دعني حتىٰ أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره». الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (ص٧١١).

الناحية حجاج صرف لا لكونه خطابًا فحسب وإنما لأنه يدعو أيضًا بصريح اللفظ إلىٰ عدم الإكراه علىٰ الإيمان، وهو ما يقتضي – حجاجيًا – أنه حوار وحجاج، ويظهر ذلك في آيات كثيرة منها: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩)»[1]؛ فالعلاقة وطيدة بين هدف القرآن الكريم الإقناعي وتنوع أساليب الخطاب القرآني التي من أهمها أسلوب الاستفهام لما يتضمنه هذا الأسلوب من قدرة حجاجية «فالملفوظ الاستفهامي يمكنه أن يؤدي في التأليف الحجاجي وظيفة الحجة كما يؤديها أي ملفوظ آخر»[2]، ولذا برز الاستفهام في القرآن الكريم لدوره في جذب المتلقي، ووضعه في دائرة المشاركة تمهيدًا لوضعه في دائرة الاقتناع التي يهدف إليها القرآن.

وقد تنبه علماء التفسير ودارسو القرآن الكريم لطبيعة الاستفهام في القرآن، وكونه يخرج عن المعنىٰ الحقيقي: طلب الاستخبار إلىٰ دلالة حجاجية، يقول الإمام الزركشي: «قال بعض الأئمة: ما جاء علىٰ لفظ الاستفهام في القرآن فإنما يقع في خطاب الله تعالىٰ علىٰ معنىٰ أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي الحاصل، فيستفهم عنه نفسه تخبره به إذ قد وضعه الله عندها»[3]؛ فهذا المعنىٰ الذي يذكره الزركشي هو الدلالة الحجاجية للاستفهام، حيث يتم إرجاع المخاطب إلىٰ نفسه في عملية مساءلة ذاتية تهدف إلىٰ انتزاع الاقتناع والتسليم من المخاطب، بل واقتلاع ما يكون في نفسه من تردد أو تشكك أو إنكار، وزيادة علىٰ الطاقة الحجاجية هذه فإن الاستفهام يقوم بعملية توجيه المتلقي والسيطرة علىٰ أحداث القضية الحجاجية، فرغم ما يمتلكه القرآن من حجة السلطة الحجاجية لكونه نصًا مقدسًا من الله ﷻ إلا

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، لعبد الله صولة، بتصرف يسير، (ص٤٤).

(٢) المظاهر اللغوية للحجاج، الراضي، (ص٩٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن، (٢/ ٢٠٣).

أنه يفتح باب الحوار والتأمل وصولًا إلىٰ الاقتناع من خلال أسلوب الاستفهام الذي ينتقل فيه المخاطب من الدلالة السطحية للاستفهام إلىٰ معان عميقة؛ تتمثل في الأمر أو النهي أو التقرير أو التهديد أو غير ذلك من المعاني، وهذا ما يسميه صولة بقانون العبور[1]، حيث يعبر المخاطب من معنىٰ الاستفهام المباشر إلىٰ البنية العميقة في الأسلوب الاستفهامي التي يصلها بعد ظاهرة حوارية تأملية تكون قد ألزمته النتيجة القارة في عمق الاستفهام.

*** موضوع البحث:**

إن دراسة الدور الحجاجي للاستفهام لاسيما الاستفهام المغلق في القرآن الكريم[2] تنطلق من النظرية الحجاجية الحديثة القائمة علىٰ قاعدة الإلزام غير المباشر والمؤسس علىٰ بنية الأقوال اللغوية، وعلىٰ تسلسلها وتنوعها داخل الخطاب، والقرآن الكريم جاء رسالة هداية وتوجيه من خلال الأسلوب اللغوي؛ ولذا فإن بنيته اللغوية تحمل قيمة حجاجية لاسيما البنية اللغوية غير المباشرة كالاستفهام المغلق الذي نحن بصدد الحديث عنه وعن قيمته الحجاجية.

*** أهمية البحث:**

إنه لمن اللازم علىٰ المهتمين بدراسة القرآن الكريم والبلاغة القرآنية إبراز أساليب الحجاج فيه، وما هذا البحث إلا محاولة لإبراز دور الاستفهام المغلق في عملية الحجاج والتوجيه الذي يمارسه النص القرآني علىٰ المتلقين له، الذين تنتابهم نوازع الشك والتساؤلات الذهنية حول قضايا عدة حتىٰ تصل نفوسهم إلىٰ دائرة الاقتناع والتسليم من خلال الحجة اللغوية.

---

(١) انظر: نظرية في الحجاج، عبد الله صولة (ص٩٦).

(٢) ذكر الاستفهام بهذا المصطلح الدكتور: عبد الهادي الشهري، مشيرا إلىٰ أنه من أهم الأدوات اللغوية لإستراتيجية التوجيه. انظر: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي الشهري، كنوز المعرفة، عمان – الأردن، ط١، ٢٠١٥م، (٢/ ١١٥).

*** مشكلة البحث وأهدافه:**

تكمن إشكالية البحث في تطبيق النظرية الحجاجية علىٰ النص القرآني، والتوصل إلىٰ القيم الحجاجية وراء ذلك، ولكن إذا أدركنا إعجاز القرآن البياني واللغوي أدركنا أهمية البحث في ذلك، من خلال طرح مجموعة من التساؤلات:

١ - ما الاستفهام المغلق؟ وكيف برز في القرآن الكريم؟

٢ - ما الوجه الحجاجي لورود ذلك الاستفهام في القرآن الكريم؟

٣- كيف دفع الاستفهام المغلق بالحجة القرآنية قدمًا وأصبحت في خدمة النص القرآني أمام القضايا المطروحة؟

ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة تكتمل خيوط البحث ويحقق أهدافه.

*** الدراسات السابقة:**

ولم أجد من الدراسات السابقة ما يتحدث عن الاستفهام المغلق في القرآن الكريم، فالدراسات التي تناولت الاستفهام في القرآن الكريم كان هدفها العرض والإعراب، كما في دراسة محمد علىٰ يوسف: أسلوب الاستفهام في القرآن غرضه - إعرابه، أو كانت للأهداف البلاغية العامة للاستفهام، كدراسة محمد إبراهيم محمد شريف لنيل درجة الماجستير، وكان تحت عنوان: أساليب الاستفهام في البحث البلاغي وأسرارها في القرآن.

*** الإضافة العلمية للبحث:**

إن هذا البحث يضيف إلىٰ الدراسات القرآنية دراسة الاستفهام المغلق ومقاربته حجاجيًا، لإبراز جانب من إعجاز القرآن الكريم.

*** منهج البحث وتقسيماته:**

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي للظاهرة للخروج منها بالنتائج الحجاجية التي يحملها الاستفهام المغلق في القرآن الكريم. ولذا جعلته قسمين وخاتمة، تناولت في القسم الأول

الاستفهام المغلق والقيمة الحجاجية من خلال الحديث عن الطاقة الحجاجية للاستفهام المغلق والطاقة الحجاجية لأدواته (هل) و(الهمزة)، والقسم الثاني جليت فيه دلالات الاستفهام المغلق في القرآن الكريم من التقرير والإنكار والأمر والنهي، مسترشدًا بتحليل عدد من الآيات الكريمة، ومبرزًا القيمة الحجاجية لتلك الأساليب، والخاتمة وفيها رصد لأهم ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات.

***

القسم الأول
الاستفهام المغلق والقيمة الحجاجية

ينظر محللو الخطابات التوجيهية إلىٰ ميزاتها اللغوية الحجاجية، ومدىٰ نجاعتها في توجيه الجمهور من خلال البناء اللغوي الدقيق لتلك الخطابات، والاستفهام أحد الأساليب المهمة في عملية الحجاج، فهو قائم علىٰ إشراك المتلقي في الخطاب من خلال الظاهرة الحوارية فيه «إن الغاية من الاستفهام سواء أكان حقيقيًا أم غير حقيقي تتمثل - حسب (ديكرو وأنسكمبر) - في أن يفرض علىٰ المخاطب به إجابة محددة، عليها المقتضىٰ الناشئ عن ذلك الاستفهام، فيتم بذلك توجيه دفة الحوار الذي تخوضه معه الوجهة التي تريد، ولما كانت أهم وظيفة ينهض لها الاستفهام هي توجيه باقي الحوار وجهة معينة، ولما كان مفهوم التوجيه هذا هو لب الحجاج عند (ديكرو) كان الاستفهام مظهرًا حجاجيًا مهمًا. ولعل هذا يفسر كثرة الاستفهام في القرآن في مواضع يمكن الاستغناء فيها بمجرد الإثبات أو النفي»[1]، فلم يكن الانتقال من المباشرة في الخطاب القرآني بالإثبات أو النفي إلىٰ أسلوب الاستفهام المغلق إلا لغرض حجاجي يتمثل في

(١) الحجاج في القرآن (ص٤٢٧).

الوصول إلىٰ درجة من الاقتناع لدىٰ المتلقي، ومن خلال معرفة الطاقة الحجاجية للاستفهام المغلق في القرآن ندرك دوره في التوجيه والإقناع، لاسيما وأن القرآن جاء لأصناف من المتلقين يختلف استعدادهم لتلقي الخطاب القرآني مما يؤهل أسلوب الاستفهام لتوجيه أنواع مختلفة منهم.

أولًا: الطاقة الحجاجية للاستفهام المغلق:

الاستفهام المغلق هو الاستفهام الذي تنحصر الإجابة عنه بالإيجاب أو النفي، وتعرف أدوات الاستفهام المغلق بأدوات الاستفهام التي يراد بها التصديق، فأدوات الاستفهام تنقسم ثلاثة أقسام:

١- قسم خاص بالتصديق وهو (هل).

٢- وقسم يكون للتصديق والتصور وهو (الهمزة).

٣- وقسم لا يكون إلا للتصور وهو بقية أدوات الاستفهام: (من، ما، أين...) [١]. ومدار هذا التقسيم هو حصول المطلوب من الاستفهام ذلك أن الاستفهام - كما يقول صاحب المطول -: «طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور»[٢]، وأمام هذا التقسيم لأدوات الاستفهام يمكننا التساؤل أي من المعنيين: التصديق أو التصور هو الأصل في دلالة الاستفهام؟ نجد السكاكي يجيب عن هذا التساؤل بأن المعنيين يرجعان إلىٰ دلالة واحدة هي «تعيين الثبوت أو الانتفاء»[٣]، وهذا المعنىٰ هو الأظهر في جانب التصديق الذي يراد به الإجابة بالإثبات أو النفي.

(١) انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي، (ص٣٠٨).

(٢) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، للتفتازاني، (ص٤٠٩).

(٣) مفتاح العلوم، (ص٣٠٨).

ويطيل الإمام السبكي الحديث عن هذا ذاكرًا الخلاف فيه، ويطرح أخيرًا هذا التساؤل: «وهو أن يقال: الاستفهام لا يكون إلا لطلب التصديق لأنه إذا قصد تعيين المسند إليه فأنت تطلب العلم بوقوع النسبة الخاصة من المسند إليه الخاص... وقد يعكس السؤال أيضًا بأن التصديق يكون بتعيين المفرد أي التصور»[1] وما يلفت النظر من هذا الكلام هو الإدراك بأن الاستفهام أو السؤال يأتي في مرحلة أخيرة يراد بها الإثبات أو النفي، بمعنىٰ أن هناك سجالًا، أو مرحلة سابقة من الدلالة علىٰ مرحلة الاستفهام المغلق قد وجدت بين المتكلم والمتلقي، ويراد من الاستفهام المغلق الوصول إلىٰ مرحلة أخيرة تتوج بالإثبات أو النفي. وهذه المرحلة هي الطاقة الحجاجية الكامنة في الاستفهام المغلق، وإذا أخذنا بقول السكاكي أن الأصل في الاستفهام - أيًا كان - التصديق أدركنا طاقته الحجاجية، لاسيما الاستفهام المغلق في القرآن الذي نص الزركشي علىٰ عدم إرادة المعنىٰ الأصلي، بل علىٰ معنىٰ أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي حاصل[2]، وهذه الدرجة الدلالية المهمة في الاستفهام المغلق هي الطاقة الحجاجية القارة فيه فكل «سؤال حجز أو صعوبة أو ضرورة اختيار، فهو إذن نداء لاتخاذ قرار»[3].

إن الاستفهام المغلق تختص به الأداة: (هل) و(الهمزة) في بعض استعمالاتها. فما خاصية الحجاج فيهما بهذا المعنىٰ؟

ثانيًا: (هل) و(الهمزة) وخاصية الاستفهام المغلق:

لقد اختصت أداة الاستفهام (هل) بالتصديق، بمعنىٰ الاستفهام المغلق، قال ابن هشام في مغني اللبيب: «هل حرف موضوع لطلب التصديق الإيجابي دون التصور ودون التصديق

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، للسبكي، (١/ ٤٢٨).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، (٢/ ٢٠٣).

(٣) بلاغة الإقناع في المناظرة، لعبد اللطيف عادل، (ص١٠٦).

السلبي»[1]، ولكونها للتصديق امتنع معها في تركيب الجملة ما يشعر بخلاف ذلك فامتنع - كما يقول صاحب المفتاح -: «أن يقال: هل عندك عمرو أم بشر؟ باتصال أم دون أم عندك بشر؟ بانقطاعها، وقبح: هل رجل عرفت؟ وهل زيد عرفت؟ دون هل زيدًا عرفته؟... لما سبق من أن التقديم يستدعي حصول التصديق بنفس الفعل فبينه وبين هل تدافع»[2]، وهذا الاستعمال لـ(هل)، وقصرها علىٰ الاستفهام المغلق يجعل منها أداة حجاجية بامتياز، وذلك أن حصر معناها في التصديق يضيق مجالات المتلقي في الإجابة، لأن التصديق حكم بالثبوت أو النفي، فهما مساران لا ثالث لهما، ولهذه الدلالة حسن ألا يليها إلا الفعل لأنها بمعنىٰ قد، والفعل المضارع بعدها يتخلص إلىٰ المستقبل[3]، وأما سر نزوعها إلىٰ الدخول علىٰ الأفعال فلأنها للتصديق والتصديق حكم، والحكم إنما يتوجه إلىٰ الصفات والأفعال، وهذه رحم بينها وبين الأفعال، والرحم الثانية أنها تعمل في الأفعال من حيث إنها تخلص المضارع إلىٰ الاستقبال وهذا نوع من التأثير، ولا يكون التأثير إلا حيث يكون الاختصاص وما يشبهه»[4]، وما نستخلصه من هذه الدلالة وهذا الاستعمال لـ(هل) هو أنها تضيق مسارات الحوار الذي ينتجه أسلوب الاستفهام، فهي أولًا خاصة بالاستفهام المغلق، الذي يراد به التصديق إثباتًا أو نفيًا، ثم هي ثانيًا تنزع إلىٰ التركيب الذي من طبيعته الثبوت والدوام، وهي تخلص المضارع إلىٰ المستقبل وتكون بمعنىٰ حرف التحقيق (قد) مع دلالتها علىٰ معنىٰ الاستفهام. وهذه الدلالة تجعل منها أسلوبًا حجاجيًا مميزًا، يراعي القضية الحجاجية التي يثيرها الاستفهام، كما يراعي درجة الحجاج ذاته بمعنىٰ أنها

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، (٢/ ٣٤٩).

(٢) مفتاح العلوم، (ص٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) انظر: مغني اللبيب، (٢/ ٣٥١).

(٤) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، أبو موسىٰ، (ص٢١٧).

تكون بمنزلة النتيجة لا المقدمة الحجاجية.

وأما (الهمزة): فقد تفيد التصديق وقد تفيد التصور، وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني عن إفادة الهمزة للتصديق، وضرورة أن يكون المسؤول عنه بعدها مباشرة فإذا» قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإن قلت أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه»[1] بمعنىٰ أن الإثبات أو النفي متوجه لما بعدها، وهذا من صميم النظرية الحجاجية، فكون المسؤول عنه ما بعدها يفيد زيادة في تضييق الخيارات في الخطاب الاستفهامي، فالخلاف والشك فيما بعدها بمعنىٰ تمحور النتيجة في موضع معين من الاستفهام، فأصبحنا أمام إغلاقين – إن جاز التعبير –: الأول انحصار النتيجة في الإثبات أو النفي، والثاني هو توجه الاستفهام لما بعدها ليس غير. فقوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: ٤٠) توجه الاستفهام إلىٰ عملية الاصطفاء لا إلىٰ الاتخاذ لغرض حجاجي هو إبطال الزعم الذي زعموه، فكيف وهو الخالق يصطفي لهم الأعلىٰ ويأخذ الأدنىٰ؟ قال ابن عاشور: «أصطفىٰ مع متعلقه بمنزلة فعلين أي قصر البنين عليكم دونه، أي جعل لكم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم، وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها. وفساد ذلك ظاهر بأدنىٰ نظر فإذا تبين فساده علىٰ هذا الوضع فقد تبين انتفاء وقوعه، إذ هو غير لائق بجلال الله تعالىٰ»[2] فنحن في الحقيقة أمام استفهام قد تضمن نتيجة حجاجية ملزمة، توجه الخطاب فيها من خلال الاستفهام المغلق بالهمزة إلىٰ الفعل الممارس من قبل المتلقين، وهو فعل باطل إذ إنهم لا يملكون الفعل أصلًا، فالمصطفي هو الله سبحانه، وفعلهم محض ضعف وازدراء وتعجب، فالهمزة – كما يقول الزمخشري –:

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، للجرجاني، (ص٨٠).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٤/ ٨٧).

«للإنكار يعني: أفخصكم ربكم علىٰ وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه؟ واتخذ دونهم وهن البنات، وهذا خلاف الحكمة، وما عليه معقولكم وعاداتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها عن الشوب، ويكون أرداها وأدونها للسادات»[1] فالقضية الحجاجية متعلقة بفعل الاصطفاء، وبمجرد بطلانه يبطل قولهم وفعلهم.

من خلال ما سبق في القسم الأول عرفنا القيمة الحجاجية للاستفهام المغلق، وخاصية أدواته في هذا الإغلاق، فالاستفهام المغلق بأدواته يحمل قيمة حجاجية كبيرة من خلال جذب المتلقي للمشاركة لطبيعة الاستفهام الحوارية، وهذه المشاركة تهدف إلىٰ تضييق خيارات المتلقي في الإجابة، وإلزامه بالنتيجة التي يعرضها الاستفهام المغلق، فلا يجد حيالها إلا التسليم والإذعان، فتصبح حقيقة الاستفهام المغلق ليست الاستفهام المباشر، بل الدلالات العميقة فيه من تقرير أو إنكار أو أمر أو نهي، وهذا ما سيحاول البحث تجليته في القسم الثاني القادم.

* * *

القسم الثاني
الدلالات الحجاجية للاستفهام المغلق

إن دور الاستفهام الحجاجي يبدأ من الجانب التحاوري أي جذب المتلقي للمشاركة، وهذا الأسلوب الظاهر في الاستفهام يتضح أكثر في الاستفهام المغلق في القرآن الكريم لكون المشاركة المطلوبة حتمية، ولا يستطيع المتلقي الإعراض عنها، «وذلك لانفتاح القرآن الدائم علىٰ المتلقين يأمرهم وينهاهم صراحة أو ضمنًا، ويسألهم ويجيبهم صراحة أو ضمنًا»[2]، وهذا

(١) الكشاف، للزمخشري، (ص٥٩٨).

(٢) الحجاج في القرآن، (ص٢٢).

من صلب النظرية الحجاجية الحديثة، لا سيما في ضوء نظرية المساءلة «باعتبار الحجة جوابًا، أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنًا من ذلك الجواب، ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام»(١)، ولدينا في الاستفهام المغلق ما هو صريح وهو السؤال، وما هو ضمني وهو الخيار الذي يترك للمتلقي للإجابة، وهو في السياق نفسه نتيجة حجاجية، فينتج عندنا أسلوب تقرير أو إنكار أو أمر أو نهي، كل ذلك نتائج للاستفهام المغلق. فكيف تكون سيرورة ذلك من خلال النص القرآني؟

أولاً: التقرير:

التقرير من أساليب الاستفهام المغلق التي يتم من خلالها تجاوز ملفوظ الاستفهام إليه ليكون أبلغ في الحجة، بحمل المخاطب عليه من خلال إجابته عن الاستفهام، فالحجاج يعد عملًا لغويًا بالدرجة الأولىٰ لأن «المحاجة علاقة بين عملين لغويين لا بين قضيتين، وهذه الخاصية تجعله مرتبطًا باللغة الطبيعية، وليس ناتجًا عن منطق صوري... أو منطق طبيعي، هي التي تجعل البحث في الحجاج مؤهلًا نظريًا لبيان الترابطات الخطابية الفعلية، وتفسير توجيه الأقوال للسامع نحو بعض النتائج دون غيرها»(٢). ويمكننا إبراز الدور الحجاجي اللغوي لأسلوب التقرير من خلال العناصر الآتية:

أ- التقرير يساوي النتيجة الحجاجية:

إن ما تحدث عنه البلاغيون من دلالة الاستفهام علىٰ التقرير ما هو إلا النتيجة الحجاجية التي أفرزها الاستفهام المغلق، فالاستفهام في ملفوظه ليس تقريرًا، بل هو استفهام مغلق يعطي

(١) الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتىٰ بن يونس، لاتزكنرمت، أحمد، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، (٢/ ٢٨٤).

(٢) نظرية الحجاج في اللغة، للمبخوت، ضمن كتاب أهم أساليب الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم، (ص٣٦٣).

المتلقي أحد الخيارين: الإثبات أو النفي والإجابة هي التقرير، سواء أكان ذلك عن طريق الإخبار من جانب المتكلم أم عن طريق طلب الإقرار من المخاطب، قال السيوطي: «المراد به - يعني التقرير - الحكم بثبوته فهو خبر بأن المذكور عقيب الأداة واقع، أو طلب إقرار المخاطب به من كون السائل يعلم، فهو استفهام يقرر المخاطب، أي يطلب منه أن يكون مقرًا به. وفي كلام الفن ما يقتضي الاحتمالين، والثاني أظهر»(1) فإذن لدينا استفهام كانت نتيجته حمل المخاطب على الإقرار بما يحتويه، وبما يعلمه أيضًا من هذه النتيجة، وهذا هو البعد الحجاجي للاستفهام المغلق هنا، وعلى هذا فإذا كانت القضية الحجاجية مما يعلمه المخاطب ويغفل عنها أو يكابر فيها يكون التقرير هو نتيجة حجاجية تنتزع منه من خلال إجابته الحتمية، فالتقرير حينها يساوي النتيجة.

فقضية إثبات قدرة الله ﷻ لا ينكرها المخاطب، لكنه يغفل عن نتائجها يأتي الاستفهام المغلق لينهي السجال النفسي والعقلي لدى المخاطب من خلال أسلوب التقرير. ولنا أن نستعرض هذه الآيات لمعرفة النتيجة الحجاجية التي رسمها الاستفهام المغلق من خلال إقرار المخاطب بها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس:٨١).

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٠٧).

(١) الإتقان في علوم القرآن، (ص٦٤).

قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ (الزمر: ٣٧).

لمحاولة تحليل هذه الآيات الدالة علىٰ التقرير لابد من السيرورة الزمنية لإدراك فائدة التقرير، فلدينا فيها تذكير الإنسان بكمال قدرة الله ﷻ بدءًا بخلق الإنسان والإقرار الأزلي بربوبية الله، ثم الاتجاه إلىٰ آيات الكون التي يشاهدها المخاطب ويدركها. والملاحظة العامة فيها هي مجيء الاستفهام المغلق مقترنًا بالنفي تقوية للحجاج فحقيقة استفهام التقرير «أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل علىٰ المنفي ونفي المنفي إثبات»[1]. فالآية الأولىٰ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ هي التقرير الأول الذي أقر به المخاطب في الأزل، قال الزمخشري: «ومعنىٰ ذلك أنه نصب لهم الأدلة علىٰ ربوبيته، ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدىٰ، فكأنه أشهدهم علىٰ أنفسهم وقررهم وقال: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلىٰ، أنت ربنا شهدنا علىٰ أنفسنا أقررنا بوحدانيتك»[2] ومن هنا نلاحظ المقدمة الحجاجية المتمثلة في نصب الأدلة، وتلقي العقول لها بالتسليم والاعتراف فتأتي النتيجة (التقرير) والإقرار بوحدانية الله ﷻ وربوبيته، ونحن في هذه الآية أمام حوار حقيقي: ألست بربكم؟ بلىٰ، شهدنا. ولم تطو إجابة المتلقي كما في باقي الآيات، بل ذكرت صراحة: بلىٰ... وهذا من الناحية الحجاجية يعطي للاستفهام وإجابته المصداقية والحدوث الفعلي، وذلك من خلال بنيات الخطاب ذاته، لأن الحقيقة تتحقق من خلال الحقيقة المصاحبة لأفعال الكلام - كما يذكر (هابرماس)[3] فتكون محورية الآية من خلال هذا الحوار، وهذا الاستفهام المغلق الذي حمل إجابة المتلقي وإقراره، فالتقرير الوارد فيها نتيجة حجاجية مع بداية زمن التحاور مع هذا المتلقي الذي سيحتاج إلىٰ مزيد من الاستفهامات المغلقة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، (٢/ ٢٠٧).

(٢) الكشاف، (ص٣٩٥).

(٣) انظر: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، لعمارة ناصر، (ص٩٢).

وإذا كان هذا بداية الخلق واعتراف بني آدم في الأزل فإنهم قد فسدت عقولهم، وأشركوا بالله الذي اعترفوا بوحدانيته قبل، وأنكروا قدرة الله علىٰ الخلق استكبارًا وغفلة، فتأتي آيات تضع مقدمات حجاجية للقضية نفسها، وهي هذا الكون المترامي الأطراف، وضخامة الخلق فيه ليكون الاستفهام المغلق بعدها نتيجة حتمية، قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس:٨١). يقول ابن عاشور عند هذه الآية: «عطف هذا التقرير علىٰ الاحتجاجات المتقدمة علىٰ الإنسان المعني من قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ (يس: ٧٧)، وذلك أنه لما تبين الاستدلال بخلق أشياء علىٰ إمكانية خلق أمثالها ارتقىٰ في هذه الآية إلىٰ الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة علىٰ إمكان خلق ما دونها، وجيء في هذا الدليل بطريقة التقرير الذي دل عليه الاستفهام التقريري، لأن هذا الدليل لوضوحه لا يسع المقر إلا الإقرار به، فإن البديهة قاضية بأن من خلق السموات والأرض هو علىٰ خلق ناس بعد الموت أقدر، وإنما وجه التقرير إلىٰ نفي المقرّر بثبوته توسعة علىٰ المقرّر إن أراد إنكارًا، مع تحقق أنه لا يسعه الإنكار فيكون إقراره بعد توجيه التقرير إليه علىٰ النفي المقصود شاهدًا علىٰ أنه لا يستطيع إلا أن يقر»[1] إن هذا الكلام من ابن عاشور يدلنا علىٰ الظاهرة الحجاجية الواضحة في التقرير، فهو ارتقاء في الاستدلال لا يملك المتلقي أمامه إلا الإقرار، وهذا دور الاستفهام المغلق. كما أن قيام التقرير علىٰ النفي هو جانب آخر في إلزام المتلقي بالإقرار، لأن طبيعة النفي الحجاجية أنه تلفظ علىٰ تلفظ «فهو توجيه علىٰ توجيه لذلك بمجرد إدماج عامل النفي تتحدد النتيجة بسرعة، ولا يجد المتقبل حرجًا أو كد ذهن في إدراك المفهوم، بل إن عامل النفي بوصفه مفهومًا علاوة علىٰ وظيفته التوجيهية في الخطاب الحجاجي فإن له قيمة مضافة وهي علىٰ حد عبارة (ديكرو) أنه ضروري لوصف البنية الدلالية العميقة للملفوظ الذي

(١) التحرير والتنوير، (٢٢/ ٢٨٠).

يبدو غير منفي»[1] فاعتماد القرآن الكريم على الاستفهام التقريري المدمج مع النفي غرضه الحجاجي واضح في توجيه المتلقي، وتضييق مسارات الخيار لديه، فإذا كان الاستفهام المغلق يضع المتلقي أمام خياري الإثبات أو النفي فإنه بإدماج النفي يلزم المتلقي بإجابة واحدة هي: بلى وبهذا تتحدد النتيجة من خلال التقرير نفسه.

وبصورة أوضح تتحدد النتيجة من خلال الاستفهام التقريري عندما تختم السورة به في إشارة إلى تقرر النتيجة، وإبرازها أمام المتلقي قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة: ٤٠). فالتقرير القائم على النفي جاء ختامًا لعرض كثير من الاستدلالات وختامًا للسورة نفسها، فكأن الاستفهام التقريري هو النتيجة التي استقرت من خلال إقرار المتلقي به، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ ويترك الجواب للمتلقي ليقول: بلى. ولذا فقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: سبحانك بلى[2] قال ابن عطية: «ثم وقف تعالى توقيف توبيخ وإقامة حجة بقوله تعالى: أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى»[3] فإذن هي إقامة الحجة وظهور النتيجة متمثلة في الاستفهام المغلق: أليس، ولذا قال ابن عاشور عن هذه الآية إنها: «واقعة موقع النتيجة من الدليل... فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، وتسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلال إلى أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحيي الموتى وهو المطلوب الذي قدم في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ (القيامة: ٣-٤)»[4].

(١) العوامل الحجاجية في اللغة العربية،لعز الدين الناجح، (ص٥٠٥١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (٢/ ٥٥٤)، رقم الحديث (٣٨٨٢).

(٣) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (ص١٩٢٧).

(٤) التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣٤١).

ونستطيع أن ندرك بعد هذا العرض كيف أسهم الاستفهام المغلق الدال علىٰ التقرير في بناء النتيجة الحجاجية، التي لا يستطيع المتلقي أن يجد عنها محيصًا. فالتقرير فيها ما هو إلا النتيجة الحجاجية من خلال بناء الخطاب اللغوي ذاته، ذلك أن من أهداف الاستفهام التوجيهية «حمل من وجه إليه الاستفهام علىٰ إبداء موافقته»[1].

ب- التقرير وقانون العبور:

بمعنىٰ العبور من الحجة المعطاة إلىٰ النتيجة الحجاجية، أو العبور من المصرح به إلىٰ الضمني - كما في وصف (تولمين) له[2] - ويكون هذا في الحجج البارزة والظاهرة للمتلقي فيكون عرضها للعبور من خلالها إلىٰ النتيجة وهي التقرير، هذا في الدلالة العميقة للبنية الحجاجية، وهناك عبور في ملفوظات الخطاب ذاته من خلال العبور من الاستفهام المغلق إلىٰ دلالة التقرير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ... الآيات (النبأ: ٦-٨). إن هذه الآيات تحوي مجموعة من الاستفهامات المغلقة الدالة علىٰ التقرير، وهو تقرير بآيات وعلامات ظاهرة عيانًا للمتلقي لا يمكنه إنكارها، وهي دالة علىٰ قدرة الله ﷻ التي يجادل فيها المتلقي، قال ابن عطية: «ثم وقفهم تعالىٰ علىٰ آياته، وغرائب مخلوقاته التي يوجب النظر فيها الإقرار بالبعث والإيمان بالله»[3]؛ فالنظر فيها يحمل المتلقي علىٰ الإقرار بقدرة الصانع لها سبحانه، ومن ثم يكون العبور به إلىٰ الإقرار المطلوب وهو الإقرار بقدرة الله علىٰ البعث والإيمان به، وهذا الإقرار يردنا إلىٰ الإقرار الأول من المتلقي في الأزل: ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ، ومن هنا يتآزر هذا الإقرار والإقرار الأول وتقوىٰ النتيجة التي وصلنا إليها من

(١) نظرية في الحجاج، (ص٣٨).

(٢) انظر: الحجاج في القرآن، (ص٢٥).

(٣) تفسير ابن عطية، (ص١٩٣٨).

خلال الحجة الظاهرة. ولا يزال الاستفهام التقريري المغلق معتمدًا علىٰ النفي، وبذلك يمتلك قوة إضافية، قال ابن عاشور تنبيهًا علىٰ هذه السمة: «والاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ تقريري، وهو تقرير علىٰ النفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يكون بعده نفي، والأكثر كونه بـ(لم) وذلك النفي كالإغراء للمقرّر إن كان يريد أن يفكر، وإنما المقصود التقرير بوقوع جعل الأرض مهادًا لا بنفيه»[1]، وقد ذكر د. أحمد بدوي أن سر الانتقال من النفي إلىٰ الاستفهام أن الاستفهام يعطي مجالًا للمخاطب للتفكر والتروي[2]، ولكن هذا فيما لو كانت القضية تحمل جانبًا من الجدال، وعدم الاتفاق، أو عدم الظهور والوضوح، أما إذا كانت ظاهرة كما في الآيات السابقة فالاستفهام حسب قول د. عبد الله صولة: «يمهد سبيل إقرار المخاطب بما يعرض عليه من قضايا إقرارًا لا يتطلب منه كد روية ولا طول تفكير... فهو (أي هذا المخاطب بالاستفهام) سرعان ما ينخرط في دورة الخطاب وينسلك في ثناياه خاضعًا له متجاوبًا معه مقرًا به. وإن أبلغ الحجج وأشدها إلزامًا للخصم وأكثرها إفحامًا له ما نطق بها هو نفسه، وساهم في صنعها من خلال إجابته عند الاستفهام الموجه إليه»[3].

ويتضح قانون العبور أيضًا في بعض الآيات الأخر كما في هذه الآيات التي سنحلّل بعضها، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (الزمر: ٢١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ٨-١٠).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ (المرسلات: ٢٥-٢٦).

---

(١) التحرير والتنوير، (٣٠/ ١٢).

(٢) انظر: من بلاغة القرآن، لأحمد بدوي، (ص١٢٦).

(٣) الحجاج في القرآن، (ص٤٢٩).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ ... الآية (النور: ٤٣).

إن هذه الآيات تقرر المخاطب بنعم الله ﷻ في الكون وفي نفسه. فالآية الأولىٰ تشتمل علىٰ «استفهام تقريري، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، فليس المراد به مخاطبًا معينًا، والرؤية بصرية» [1] بمعنىٰ أن ما يشاهده المخاطب من تلك الآيات العظيمة لابد أن يقر بها، فهي نعمة ظاهرة. والآية لم تقتصر علىٰ ظاهرة إنزال المطر، بل تعرضه في تسلسل تصاعدي للأحداث حتىٰ يصل التسلسل إلىٰ الذبول والانتهاء، ويمكننا توضيح ذلك من خلال الشكل التالي:

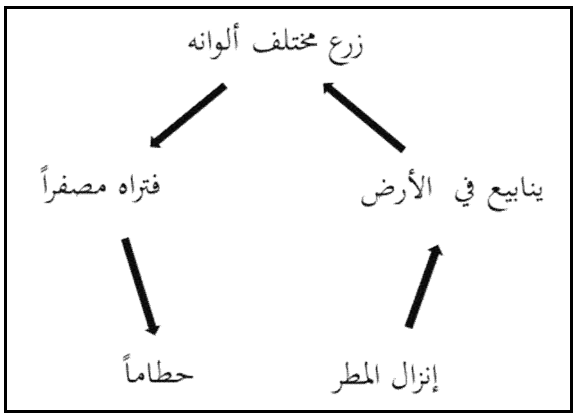

إن ما ترسمه الآية من هذا الشكل يمثل قانون عبور إلىٰ التمثيل بحال الدنيا، التي يعيشها الإنسان، قال الرازي: «اعلم أنه تعالىٰ لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب النفرة عنها، وذلك أنه تعالىٰ بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر... ثم إنه تعالىٰ ينزله إلىٰ بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيونًا ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام، ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك... ثم يهيج... ثم يصير حطامًا

(١) التحرير والتنوير، (٢٤/ ٦٠).

(إن في ذلك لذكرىٰ) يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وإن طال عمره»[1] إذن نحن في هذه الآية أمام إقرارين؛ الأول: ما يفيده الاستفهام المغلق ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ حيث لا يملك المخاطب خيارًا إلا الاعتراف والإقرار بذلك لأنه مشاهد، وواضح الظهور أمامه، والثاني: إقرار ضمني وهو الإقرار بنهاية الدنيا ونهاية الإنسان كما أقر بالأول، فالاستفهام التقريري وإن كان ظاهره الاستفسار «فإنه لا يطلب الخبر، بل يبحث في إقراره علىٰ المخاطب ليضعه أمام تبعاته»[2] ومن تبعات الإقرار الأول في هذه الآية الإقرار الثاني، الذي يكتمل به الاستفهام التقريري، وتتم به حلقات الخطاب، ويزداد قوة إضافية، فالقالب «التركيبي الاستفهامي قد جعل وسيلة لإضافة قوة إلىٰ قوة المنطوق الإنجازية»[3] فأصبح التقرير الثاني ذا قوة إنجازية من خلال التقرير الأول، لاسيما وأن الأول كالمفروغ منه إقرارًا.

ويتضح هذا العبور أكثر في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ لقرب الحجة المعطاة من المخاطب، قال ابن عطية: «ثمّ عدّد الله تعالىٰ علىٰ الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهي جوارحه، وقرن تعالىٰ الشفتين باللسان لأن نعمة العبارة والكلام لا تصح إلا بالجميع»[4] فالإقرار بوجود هذه الحواس وأنها من الله عبور إلىٰ الإقرار بوجوب العبادة لمانحها سبحانه، ولا يملك المتلقي لهذا الاستفهام المغلق إلا الإقرار به. ومما يلاحظ في هذه الآية الكريمة توجيه الخطاب إلىٰ غائب (له) زيادة في التلطف في الخطاب، فكأن المخاطب ليس في

(١) تفسير الرازي، للرازي، (٢٦/ ٢٦٤).

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة، (ص٢١٧).

(٣) تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب، للعبد، مجلة فصول العدد (٦٥)، (ص١٥٠).

(٤) تفسير ابن عطية، (ص١٩٨٠).

واجهة الخطاب (أنت) فهناك مسافة بين المتكلم سبحانه وبين المخاطب، وهذه المسافة تضمن جانبًا كبيرًا من التلطف في الخطاب[1] وتضمن بدورها جانبًا كبيرًا من حث المخاطب ألا يكون هو المكذب الموجه إليه هذا الخطاب، وكأننا أمام شهود مقرون بالاستفهام.

وأخيرًا عندما تندمج الحجة بخلق الإنسان ترتد النتيجة إلىٰ التقرير الأول: ألست بربكم، فعندما يرد التقرير بخلق الإنسان نفسه تكون حلق التقرير قد اكتملت من التقرير الأول إلىٰ التقرير بآيات الله في الكون وفي الإنسان نفسه، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٢). إن الاستفهام بطبيعته الحجاجية يجعل المخاطب مسهمًا في إنتاج الحجج، يصنعها ويعود فيخضع لها ويتقيد بها من خلال الإجابة عن الاستفهام[2] وهذا ما نجده في الآية الكريمة السابقة، فالمخاطب لا يمكنه إلا أن يجيب بما يتماشىٰ مع الحجة المعطاة، ولذلك هو يلزم نفسه بتبعات الإجابة من حيث لا يدري. فالله هو الذي خلق هذا الإنسان لا محالة ولا يمكن لأي بشر إنكار ذلك، ولكن هذا الإقرار عبور إلىٰ إقرار آخر وهو الإيمان بالبعث والنشور الذي ينازع فيه المخاطب، فالتقرير جاء «علىٰ ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادًا متقنًا دالًا علىٰ كمال الحكمة والقدرة ليفضي بذلك التقرير إلىٰ التوبيخ علىٰ إنكار البعث والإعادة، وإلىٰ إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بُدئ أول مرة، وكفىٰ بذلك مرجحًا لوقوع هذا الممكن لأن القدرة تجري علىٰ وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن علىٰ عدمه»[3] فالحجة قائمة علىٰ المتلقي المقر ببدء الخلق، والأسلوب يتجاوز إقراره إلىٰ توبيخ من يصدر منه الإنكار، وفي هذا زيادة في قوة الحجاج.

---

(١) انظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، لطه عبد الرحمن، (ص٢٤١).

(٢) انظر: الحجاج في القرآن، (ص٤٢٩).

(٣) التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣٩٨).

ج- التقرير والحجة المزدوجة:

إن من دقائق الاستفهام المغلق في القرآن أن يحمل حجة مزدوجة، بمعنىٰ أن يكون الاستفهام الدال علىٰ التقرير ذا طاقة حجاجية عميقة يحددها السياق العام للخطاب القرآني، ومن ذلك الاستفهام في سورة الضحىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحىٰ: ٦-٨). فما فائدة تقرير النبي ﷺ بذلك وهو الذي يؤمن به كله؟ وهل هذا التقرير يجرنا إلىٰ تقرير آخر؟ تجيب عائشة عبد الرحمن عن التساؤل الأول بقولها: «فهو تعالىٰ يبث في نفس الرسول الطمأنينة، ويثبت قلبه بلفته إلىٰ ما أسبغ عليه في أولاه من نعم: كان يتيمًا، بل مضاعف اليتم فآواه ووقاه مسكنة اليتم، وكان ضالًا حائرًا فهداه تعالىٰ إلىٰ دين الحق، وكان عائلًا فأغناه بفضله وكرمه، أفما يكفي هذا ليطمئن المصطفىٰ إلىٰ أن الله غير تاركه ولا مودعه؟»[1] ولكن هذا التقرير في حقيق الأمر يتجاوز المصطفىٰ ﷺ إلىٰ كونه حجة تدفع إلىٰ المشركين الذين فرحوا بانقطاع الوحي، ولذا يقول ابن عاشور مجيبًا عن التساؤل الثاني: «والمقصود هو إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياسًا علىٰ ما ذكره من ملازمة لطفه به فيما مضىٰ، وهم لا يجهلون ذلك»[2].

فالتقرير الأول بمثابة الحجة للتقرير الثاني لأن «الملفوظ الاستفهامي يمكنه أن يؤدي في التأليف الحجاجي وظيفة الحجة»[3] وهذا ما نجده في الاستفهام المغلق الموجه إلىٰ النبي ﷺ وإذا وضعنا هذا الاستفهام في سياق السورة كلها وجدناه أحد ثلاث حجج، تحملها هذه السورة المكية للمعاندين المشركين الذين كانوا يقفون موقف الإنكار لدعوة الرسول ولنصرة الله له؛

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، لعائشة عبد الرحمن، (١/ ٤٢).

(٢) التحرير والتنوير، (٣٠/ ٣٥٢).

(٣) المظاهر اللغوية للحجاج، لرشيد الراضي، (ص٩٦).

أولىٰ هذه الحجج، القسم في أول السورة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحىٰ: ١-٢). إن هذا القسم لفتة إلىٰ ظاهرة كونية متكررة، ودلالته - كما تقول عائشة عبد الرحمن - «أنه لا عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره علىٰ المصطفىٰ ﷺ فترة سكون يفتر فيها الوحي علىٰ نحو ما نشاهده من الليل الساجي يوافي بعد فترة الضحىٰ المتألق»[1] فهذا الربط بين ظاهرة كونية مسلم بها لدىٰ المتلقي وهي مجيء الليل بعد الضحىٰ والذي لا يعني عدم عودة الضحىٰ، بل سيعود وبين انقطاع الوحي فترة من الزمن هذا الربط حجة مؤسسة علىٰ بنية الواقع والتي تعني جعل «الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلىٰ كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدهما دون التسليم بالآخر»[2].

وثاني هذه الحجج التوكيد في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ (الضحىٰ: ٥). فاللام للتوكيد لام ابتداء داخلة علىٰ مبتدأ محذوف والتقدير - كما يقول الزمخشري - «ولأنت سوف يعطيك»[3]، ويعلل ذلك بقوله: «فإن قلت ما معنىٰ الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة. عدد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه ترشيحًا لما به يقيس المترقب من فضل الله علىٰ ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنىٰ، وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره»[4]، أما ثالث الحجج فهي الاستفهام المغلق الدال علىٰ التقرير الذي سبق توضيحه؛ حيث

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، (١/ ٢٦).

(٢) نظرية في الحجاج، (ص٤٩).

(٣) وافق علىٰ ذلك ابن عاشور علىٰ خلاف ما ذكره ابن الحاجب وابن هشام.انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٢).

(٤) الكشاف، (ص١٢٠٩).

يتجاوز في دلالته النبي ﷺ إلىٰ تقرير قريش برعاية الله ﷻ له، وبيان نصرته له إيذانًا بانتصار دعوته، ونقلها من الضعف إلىٰ القوة ومن الهزيمة إلىٰ الانتصار، كما حصل في حياته الخاصة ﷺ فالحجة مزدوجة تبدأ بسلوك شخص إلىٰ سلوك دعوة وأمة.

ويتقوىٰ الحجاج في هذه السورة بالسورة التي بعدها سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؟ (الشرح: ١-٢). «فالاستفهام للتقرير خلافًا للزمخشري الذي يراه للإنكار[1] فإذن «مضمونها شبيه بأنه حجة علىٰ مضمون سورة الضحىٰ تثبيتًا له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ»[2] والسورتان بسياقهما ومناسبتهما يحملان حجة للمعاندين من كفار قريش، فما إن يترسخ لدىٰ الرسول هذا النصر وتلك العناية ويتقوىٰ بها حتىٰ تكون حجة واضحة لأولئك الزاعمين ضعف النبي وتخلي الله عنه.

لقد اتضح مما سبق من تحليل للآيات الكريمة الدالة علىٰ التقرير مدىٰ إسهام الاستفهام المغلق في إقناع المتلقي من خلال إجابته التي يتحمل تبعاتها، فينجر إلىٰ الإقرار بما يتضمنه الاستفهام المغلق سواء أكان ذلك من خلال بروز النتيجة الحجاجية من خلال إجابته، أو من خلال قانون العبور الذي يمارسه الاستفهام المغلق علىٰ المتلقي، أو من خلال الحجة المزدوجة التي يتجاوز فيها الحجاج سطح الاستفهام وإجابته إلىٰ إقرار آخر هو المقصود من الاستفهام حقيقة.

ثانيًا: الإنكار والنفي:

وهما من أساليب الاستفهام المغلق التي تضيق مجال الإجابة، بل تجعلها متماهية مع الاستفهام نفسه القائم علىٰ النفي، فما بعد أداة الاستفهام الإنكاري هو المنفي كقوله تعالىٰ:

---

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، (ص٦١).

(٢) التحرير والتنوير، (٣٠/ ٣٥٩).

﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقوله: ﴿ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ (سبأ: ١٧)، وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر: ١٩) أي: لست تنقذ من في النار[1] وقد يتآزر الإنكار والنفي كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾ (الزمر: ٣٦) «فالمراد إنكار ما دخلت عليه الهمزة، وهو النفي وإنكار النفي نفي لذلك النفي»[2] وتكمن أهميته الحجاجية من حيث القدرة المضاعفة للنفي، فطبيعة النفي أنه تلفظ علىٰ تلفظ، بمعنىٰ توجيه علىٰ توجيه مما يجعل النتيجة تتحدد بسرعة ووضوح، فلا يملك المتلقي حيالها إلا التسليم والإذعان.

ويمكننا دراسة أسلوب الإنكار من خلال دلالاته المختلفة كما يلي:

أ- يأتي الاستفهام الإنكاري لتعريف المخاطب أن المدعىٰ ممتنع عليه وليس في قدرته[3]:

وأهمية ذلك من الناحية الحجاجية هي مخاطبة العاطفة وردها إلىٰ العقل، فإن المخاطب قد ينساق وراء عاطفته لزيادة حرص واهتمام متناسيًا قدرته علىٰ ذلك، فيأتي هذا الاستفهام المغلق الدال علىٰ الإنكار لتتوازن المشاعر والعواطف، وترد إلىٰ العقل والفهم، وفي ذلك حماية للمتلقي من خلال الخطاب نفسه، ومثال ذلك هذه الآيات الكريمة:

قال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (الزخرف: ٤٠).

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر: ١٩).

إن الإنكار في هذه الآيات متوجه لما بعد الهمزة (أنت) وهو الرسول ﷺ وإذا عرفنا حرصه علىٰ هداية قومه ندرك قيمة هذا الاستفهام الإنكاري الذي يبعد عن خاطره مقدرته علىٰ تلك

(١) انظر: البرهان، (٢/ ٢٠٤).

(٢) معجم البلاغة العربية، لبدوي طبانة، (٢/ ٨٧٢).

(٣) انظر: البرهان، (٢/ ٢٠٥).

الهداية، وبذلك تطيب نفسه وتعود مشاعره إلىٰ الراحة والهدوء، ولذلك يقول الزمخشري: «كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد في دعاء قومه، وهم لا يزيدون علىٰ دعائه إلا تصميمًا علىٰ الكفر وتماديًا في الغي»[1] فلنا أن نتصور مدىٰ ما يختلج في نفسه ﷺ والحالة هذه، وقد ألمح ابن عاشور إلىٰ قيمة الاستفهام الإنكاري هنا حيث يقول: «ولما كان من حال الرسول ﷺ في معاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر علىٰ إيصال التذكير إلىٰ قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار، وسلط الاستفهام علىٰ كلام فيه قصر بتقديم المسند إليه علىٰ الخبر الفعلي، مع إيلاء الضمير حرف الإنكار، وهو قصر مؤكد وقصر قلب؛ أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم، بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء»[2]؛ فالحجاج في هذه الآية حجاج مركب من الاستفهام الإنكاري وأسلوب القصر بتقديم المسند إليه (أنت) وهذا يدلنا علىٰ ملاحظتين مهمتين هما:

١- مدىٰ حرص النبي ﷺ علىٰ هدايتهم حتىٰ خيل إليه أنه يمتلك تلك الهداية، وهذا ما برز من خلال بنيات الخطاب نفسه، فالإنكار توجه إليه، وقصرت الصفة عليه كذلك.

٢- مع أن الهداية لا يملكها إلا الله سبحانه إلا أن المجال التداولي[3] برز في الآية الأولىٰ، فمراعاة حالته ﷺ جعل الخطاب يتجه إليه بكامل طاقته الحجاجية.

أما الآية الثانية فإن مجيء الاسم (أنت) بعد الاستفهام الإنكاري يجعل مدار الإنكار

(١) الكشاف، (ص٩٩١).

(٢) التحرير والتنوير، (٢٥/ ٢٥٧).

(٣) التداولية مصطلح ثري المعاني، ولعل التعريف الذي يقرب مجال الممارسة التداولية هو: أنها دراسة الخطاب من خلال المقام، أو دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل. ويمكن الاطلاع علىٰ المزيد من خلال كتاب: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر حباشة، صفحات للدراسات والنشر، سوريا - دمشق، الإصدار الأول ٢٠٠٨ م. وكتاب: التداوليات وتحليل الخطاب، جميل حمداوي، مكتبة المثقف.

متوجهًا إلىٰ الذات المكرهة، وذلك أن الإكراه في الظاهر مقدور عليه كما يقول الزمخشري[1] إلا أن حقيقته ليست في استطاعة البشر، ومنهم محمد ﷺ، فقد نزل ﷺ لحرصه علىٰ إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بشكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم علىٰ الإيمان حتىٰ ترتب علىٰ ذلك التنزيل إنكاره عليه.

ولأجل كون هذا الحرص الشديد هو محل التنزيل، ومصب الإنكار وقع تقديم المسند إليه علىٰ المسند الفعلي، فقيل: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ ﴾ (يونس: ٩٩) دون أن يقال: «أفتكره الناس، أو أفأنت مكره الناس؛ لأن تقديم المسند إليه علىٰ مثل هذا المسند يفيد تقوي الحكم فيفيد تقوية صدور الإكراه من النبي ﷺ لتكون تلك التقوية محل الإنكار»[2] فالإنكار متوجه إلىٰ الذات المحاولة للإكراه، وتلك الذات هي محمد ﷺ المدفوع بحرصه علىٰ قومه حتىٰ وصل إلىٰ درجة من يحاول الإكراه، وهذا الإكراه وإنكاره يمثل حجاجًا قائمًا علىٰ مراعاة انفعال المخاطب؛ حيث يقترن بفعل تقويمي ينجزه الخطاب يترتب عليه قدر من العقلانية التي تخفف مبالغة الانفعال واندفاعه[3]، فكلمات (تكره – يكونوا – تنقذ – النار) في الآيات السابقة تدل علىٰ مدىٰ اجتهاد الرسول ﷺ في هداية القوم، ومدىٰ العاطفة التي تمثلها هذه الملفوظات، والقيمة الحجاجية في الاستفهام الإنكاري واضحة في رد المخاطب إلىٰ سبيل الاستطاعة لتطيب نفسه ويستقر فؤاده، وزيادة علىٰ ذلك فيه كما يقول ابن عاشور: «عريض بالثناء علىٰ النبي، ومعذرة له علىٰ عدم استجابتهم إياه، ومن بلغ المجهود حق له العذر»[4] وما يلفت النظر في الحجاج في هذه

(١) انظر: الكشاف، (ص٤٧٥).

(٢) التحرير والتنوير، (١١/ ١٨٣).

(٣) انظر: من الاحتجاج بالعواطف إلىٰ الاحتجاج للعواطف، لعبيد، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، (٢/ ٧٣).

(٤) التحرير والتنوير، (١١/ ١٨٣).

الآية هو قيامها على سلم حجاجي بالأداة اللغوية (حتى) المرادفة لـ(إلى) فتفيد انتهاء الغاية[1] بمعنى بلوغ قمة السلم الحجاجي[2]، وهو هنا بلوغ الإكراه على الإيمان، وهذا يدلنا على درجة الحرص الشديد، فطبيعة (حتى) هي نقل الملفوظ من العام إلى الخاص ليكون أكثر حجية وأقوى توجيها إلى النتيجة[3] وهو هنا النقل من محاولة الدعوة والإرشاد إلى درجة الإكراه، ولذلك يكون الملفوظ في قمة السلم الحجاجي فإنكاره يعني انتهاء السلم من أعلى قمته إلى أسفله. وبهذا يكون الاستفهام المغلق الإنكاري قد بلغ قمة الحجاج، ويكون المخاطب قد طابت نفسه، ورجعت إلى دورها الطبيعي في الدعوة والتوضيح والإرشاد، وعدم الإكراه والإلزام.

ب- نفي الفعل:

يكون الاستفهام الإنكاري بمعنى نفي الفعل، وذلك إذا وقع الفعل بعد أداة الاستفهام، فيتوجه الإنكار إلى الحدث ابتداء، وفي هذا حمل للمخاطب على إنكار ما كان يحاج به فتبطل حجته، فبعد أن كان يماري في حدوث الفعل ويتمسك به حجة ينقلب بجوابه إلى منكر له وفي ذلك أبلغ الحجة، ومن ذلك هذه الآيات؛ قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ

(١) انظر: مغني اللبيب، (١/ ١٤٤).

(٢) السلم الحجاجي هو «عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبة وموفية بالشرطين التاليين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب- كل قول كان في السلم الحجاجي دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه»، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، (ص٢٧٧).

(٣) انظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، (ص١٣٦).

وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١-١١٢).

قال تعالىٰ: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨).

قال تعالىٰ: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ (الرعد: ١٦).

يتجه الإنكار والنفي في هذه الآيات إلىٰ وقوع الفعل، بمعنىٰ عدم الوقوع، ومجيئه عل صيغة الاستفهام المغلق يكون أبلغ حجة لأن «الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلىٰ تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان في توجيه السؤال إليه حملًا له علىٰ الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء»[1] فالإجابة بالنفي حاصلة حتمًا، فالمخاطب من خلال الاستفهام يعد مشاركًا في الخطاب لا بد له أن يكمل فراغات النص، بمعنىٰ الجواب الذي يحتاجه الاستفهام المغلق. في الآية الأولىٰ، يحمل الاستفهام نفي الإيمان وإنكاره بسبب اتباع الأرذلين لنوح عليه السلام، وقد سلكوا أسلوب الاستفهام إبلاغًا في الحجة، ومحبة للمشاركة التي يضمنها الاستفهام، وكان الجواب المتوقع نفي اتباع الأرذلين لتتم استجابتهم للنبي عليه السلام، ولكن الخطاب القرآني يأتي بما لم يتوقعوه جوابًا، فلم يرد نوح عليه السلام بإنكار اتباع الأرذلين، لأن ذلك قد وقع فعلًا، فهل هو حجة لعدم إيمانهم؟

إن جواب نوح عليه السلام هو استفهام آخر: قال وما علمي بما كانوا يعملون؟ والتدقيق في ذلك يحيلنا إلىٰ أمر مهم يفصله ابن عاشور بقوله: «وجواب نوح عن كلام قومه يحتاج إلىٰ تدقيق في لفظه ومعناه: فأما لفظه فاقتران أوله بالواو يجعله في حكم المعطوف علىٰ كلام قومه، تنبيهًا علىٰ اتصاله بكلامهم كناية عن مبادرته بالجواب... وأما معناه فهو استفهام مؤذن بأن قومه فصلوا

(١) من بلاغة القرآن، (ص١٢٦).

إجمال وصفهم أتباعه بالأرذلين بأن بينوا أوصافًا من أحوال أهل الحاجة الذين لا يعبأ الناس بهم، فيأتي بالاستفهام عن علمه استفهامًا مستعملًا في قلة الاعتناء بالمستفهم عنه، وهو كناية عن قلة جدواه لأن الاستفهام عن الشيء يؤذن بالجهل به»[1] إن ما نجده في التعليق هو إبطال حجة الاستفهام المغلق باستفهام غير متوقع وهو أن نوحًا ﷺ ليس لديه علم بما لدىٰ أولئك الأرذلين حتىٰ يؤمنوا، وهذا يجعلهم يتساءلون عن تبعات كل ذلك، فمرد ذلك إلىٰ الله، مما يجعلهم أمام خوف من عدم الإيمان، وهو ما يحيك في صدور الكفار حول الهداية، حتىٰ زعموا في آية أخرىٰ أنه لو كان خيرا لسبقوا إليه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ ﴾ (الأحقاف: ١١). وإذا انتقلنا إلىٰ الآية الثانية وجدنا الإنكار والنفي موجّهًا إلىٰ الفعل كذلك، ﴿ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا ﴾ فالاستفهام «إنكار أن يكون فيه إلزام بهذه البينة بعد أن التبست عليهم»[2] وهذه قيمة الاستفهام المغلق الحجاجية، فإذا لم يكن هناك إلزام وأجاب المخاطب بـ(لا) وقع تحت تبعات الجواب الذي قاله وبذلك يكون هذا الأسلوب كما يقول ابن عاشور: «أشد في توقع العقاب العظيم»[3] وأما قوله تعالىٰ: ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ فإن الاستفهام الإنكاري يندمج مع القصر، فلدينا قوتان حجاجيتان؛ أولاهما: نفي الفعل وإنكاره وهو الهلاك، والثانية: إثباته للقوم الفاسقين، ويلازم ذلك مفهوم الغياب وهو عدم هلاك غير الفاسقين، وبهذا تكون الآية قد حملت قوة التهديد والوعيد للفاسقين وقوة البشارة للمؤمنين، قال ابن عطية: «وفي الآية وعيد محض وإنذار بين، وذلك أن الله تعالىٰ قد جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها ونهىٰ عن الكفر وأوعد عليه بالنار (فلن يهلك علىٰ الله إلا هالك) كما قال ﷺ، قال الثعلبي: يقال: إن

(١) التحرير والتنوير، (١٩/ ١٦).

(٢) دلالات التراكيب، (ص٢٣٦).

(٣) التحرير والتنوير، (١١/ ٢٤٥).

قوله تعالىٰ: ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أرجىٰ آية في كتاب الله تعالىٰ للمؤمنين»[1] وبهذا تتحقق قيمة الاستفهام المغلق الحجاجية حيث حملت الآية حجتين إحداهما لترهيب الفاسقين والأخرىٰ لترغيب المؤمنين، ويتحدد من خلال هذه الثنائية استيفاء الخطاب القرآني لكافة المتلقين إبلاغًا وتأثيرًا.

ونتوقّف أخيرًا عند قوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ ﴾ لنجد الاستفهام المغلق قد تعلق بأشياء مدركة إدراكًا حسيًا لا جدال فيه، والإجابة بالنفي والإنكار حاصلة حتمًا، فلا يمكن لعاقل أن يجيب بالإثبات، فالفرق واضح بين الأعمىٰ والبصير، وبين الظلمات والنور، فالغرض العميق في هذا الاستفهام أن ينكر وينفي المخاطب عدم استواء المهتدي والضال، والمعبود الحق والمعبود الباطل، فمتىٰ أقر المتلقي بإنكار الاستواء بين هذه المحسوسات أصبح ذلك حجة في عدم استواء ما يجادل فيه، ولذلك قال أبو السعود: «هل يستوي الأعمىٰ الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها، والبصير الذي هو الموحد العالم بذلك، أو الأول عبارة عن المعبود الغافل والثاني إشارة إلىٰ المعبود العالم بكل شيء، أم هل تستوي الظلمات التي هي عبارة عن الكفر والضلال والنور الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان»[2] فهذا الاستفهام في حقيقته قائم علىٰ التشبيه بين هذه الثنائيات (الأعمىٰ – البصير – الظلمات – النور) وبين حال الكافر والمؤمن، والمناسبة بينها واضحة كما يقول ابن عاشور «لأن حال المشركين أصحاب العمىٰ كحال الظلمة في انعدام المبصرات، وحال المؤمنين كحال المبصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد»[3].

(١) تفسير ابن عطية (ص١٧١٧).

(٢) تفسير أبي السعود المسمىٰ: إرشاد العقل السليم لمزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، (٥/ ١٣).

(٣) التحرير والتنوير، (١٢/ ١٦٤).

ومما يقوي الحجاج في هذا الاستفهام هو قيامه علىٰ السلم الحجاجي كما يوضحه هذا الشكل:

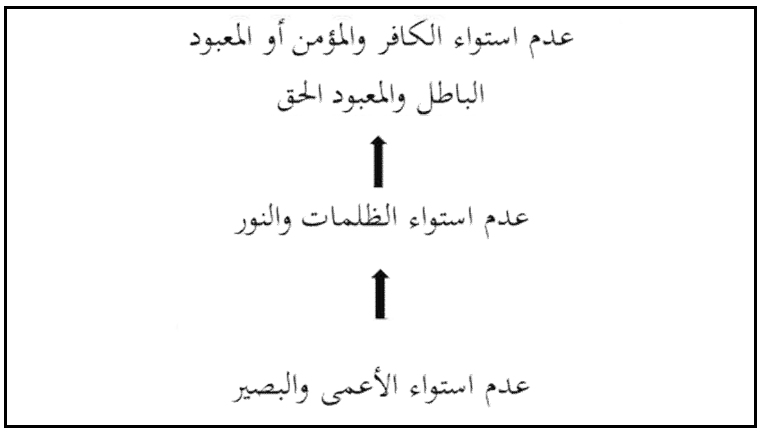

إن هذا السلم الحجاجي يجعل المخاطب أو المتلقي يرتقي في الحجة من خلال إجابته عن الاستفهام المغلق، حتىٰ يصل إلىٰ قمة السلم بمعنىٰ الوصول إلىٰ النتيجة وهي إنكار استواء الكافر والمؤمن، أو المعبود الباطل والمعبود الحق. وبهذا يكتسب الخطاب قوته الحجاجية من خلال الاستفهام المغلق(١).

ثالثًا: الأمر والنهي:

من أساليب الاستفهام المغلق المهمة الأمر والنهي، بمعنىٰ الدلالة علىٰ طلب الفعل أو طلب الكف عنه(٢)، وتكمن أهمية الحجاج في هذا الأسلوب في أن الأمر والنهي المباشرين أقل نجاحًا في العملية الحجاجية، إذ إنهما يستمدان طاقتهما الحجاجية من شخصية الآمر والناهي لا

(١) لمزيد من الأمثلة: قال تعالىٰ: ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (النمل:٩٠)، قال تعالىٰ: ﴿ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥).

(٢) انظر: عروس الأفراح، (١/ ٤٩٦).

من الصيغة اللغوية نفسها[1] ومع أن القرآن الكريم له السلطة المطلقة علىٰ البشر لكونه من الله ﷻ الذي لا معقب لحكمه إلا أن أساليب القرآن في الأمر والنهي تأتي بصيغة الاستفهام المغلق؛ مراعاة للنفس البشرية التي تنفر من الأمر والنهي المباشرين، ولهذا فإن الحجاج واضح في هذا الانتقال من الأمر والنهي المباشر إلىٰ صيغة الاستفهام، وبإمكاننا إيضاح ذلك من خلال تحليل الآيات التالية:

قال تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾ (آل عمران: ٢٠).

وقال تعالىٰ: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧).

وقال تعالىٰ: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١).

فالاستفهام في الآية الأولىٰ موجه لنوعين من المخاطبين هما: الذين أوتوا الكتاب والأميين فـ(أأسلمتم) بمعنىٰ «أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد علىٰ كفركم»[2] فلم يكن الاستفهام المغلق إلا بعد بيان ما يوجب الإسلام والإيمان، ولهذا يعلق الزمخشري علىٰ هذا الاستفهام بقوله: «وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف؛ لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسدادًا بينه وبين الإذعان»[3] ومما يقوي الاستفهام حجاجيًا مجيء الفعل علىٰ صيغة الماضي ﴿ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾ دون المضارع وذلك «للتنبيه علىٰ أنه

(١) انظر: الحجاج أطره وتقنياته، لصولة، ضمن كتاب: أهم أساليب الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم، (ص٣٢١).

(٢) الكشاف، (ص١٦٥).

(٣) السابق، (ص١٦٦).

يرجو تحقق إسلامهم، حتىٰ يكون كالحاصل في الماضي»[1] ولا يخفىٰ ما في صيغة الماضي من تحقق وقوع الحدث، ولذا عبر به هنا عن المضارع وكأن الإسلام فعلًا قد حصل، وإن لم يكن كذلك فإن وضوح الأدلة والبراهين تجعله بمنزلة الواقع لا محالة.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم شَٰكِرُونَ﴾ فإن الاستفهام المغلق بـ(هل) ومجيء الجملة بعده اسمية أدل علىٰ طلب الشكر من قول: فهل تشكرون، ومن قول: فهل أنتم تشكرون؛ لأن إبراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدل علىٰ كمال العناية بحصوله[2] هذا من خلال بناء مفردات الآية، أما من الناحية الدلالية فإن الأمر جاء علىٰ صورة الاستفهام زيادة في الحجة، وإلزام المتلقي بالشكر، قال أبو السعود: «أمر وارد علىٰ صورة الاستفهام للمبالغة»[3] وبهذا يكون الاستفهام المغلق قد اكتسب قوة مضاعفة، أولًا: من بناء الجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبات لأمر متجدد، وثانيًا: من الانتقال بالخطاب من الأمر المباشر إلىٰ صيغة الاستفهام المغلق، مما يجعل المخاطب ليس مطلوبًا منه الأمر مباشرة، بل بعد الإجابة عن الاستفهام المغلق ليكون هو الذي ألزم نفسه بتبعات الجواب.

ونجد في الآية التالية الأمر بالتذكر بأسلوب استفهامي آخر قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيأتي الأمر به بالاستفهام المغلق مع الفعل المضارع الدال علىٰ الاستمرار، والتذكر «التأمل وهو بهذه الصيغة لا يطلق إلا علىٰ ذكر العقل لمعقولاته، أي حركته في معلوماته»[4] فيكون الأمر به أي (التذكر) خطاباً لمن لديه عقل يتذكر به. فهو إشارة إلىٰ أن من فهم هذه الصفة فهو العاقل الذي

(١) التحرير والتنوير، (٣/ ٥٩).

(٢) انظر: مفتاح العلوم، (ص٣٠٩).

(٣) تفسير أبي السعود، (٦/ ٨٠).

(٤) التحرير والتنوير، (١١/ ١٥).

من شأنه التأمل والتذكر، ومن لم يكن كذلك فهو في الأصل محروم من آلته أي العقل. وبهذا تزداد قيمة الاستفهام المغلق الحجاجية. وأما الاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فهو للأمر كما يقول صاحب البرهان[1] وتبعه في ذلك السيوطي[2]، وعلىٰ الرغم من أن الأمر يتوجه إلىٰ ترك محرم إلا أنه جاء بصيغة الاستفهام، وذلك أبلغ كما يقول الزمخشري[3]، وبالنظر إلىٰ التركيب الداخلي لهذا الاستفهام نجد الآية قد حملت قوة حجاجية لغوية يشير إليها ابن عاشور بقوله: «ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حد الإعجاز. ولذلك اختير الاستفهام بـ(هل) التي أصل معناها (قد)... فهي لاستفهام مضمّن تحقق الإسناد المستفهم منه وهو ﴿أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾... وجعلت الجملة بعد (هل) اسمية لدلالتها علىٰ ثبات الخبر زيادة في تحقيق حصول المستفهم عنه. فالاستفهام هنا مستعمل في حقيقته، وأريد معها معناه الكنائي؛ وهو التحذير من انتفاء وقوع المستفهم عنه. ولذلك روي أن عمر لما سمع الآية قال: انتهينا! انتهينا!»[4] ويضاف إلىٰ ذلك المجال التداولي للخطاب، فقد جاءت الآية لتحريم الخمر التي تتعلق بها نفس الشارب، وجاء بعد تفصيل آثارها السيئة التي تدعو إلىٰ تحريمها وتركها فإيراد «الأمر بصورة الاستفهام – فضلاً عما فيه من تعبير مؤدب لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل – فيه إغراء بالعمل والحث عليه»[5]، وكفىٰ بهذا الأسلوب جذبًا للمتلقي وتوجيهًا وإقناعًا له.

(١) انظر: البرهان، (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، (١/ ٣٣١).

(٣) انظر: الكشاف، (٧/ ٣٠٨).

(٤) التحرير والتنوير، (٥/ ٢٨).

(٥) من بلاغة القرآن، (ص١٢٧).

وأما النهي فمنه قوله تعالىٰ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٣) فالاستفهام للنهي أي لا تخشونهم[١] ولكن هناك من المفسرين من يرىٰ أن الاستفهام للتقرير والتوبيخ، قال صاحب الكشاف: «تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها»[٢]، وقال ابن عاشور: «الاستفهام فيها إنكار أو تقرير علىٰ سبب التردد في قتالهم»[٣]، وقال محي الدين الدرويش: «الهمزة للاستفهام، ومعناها النهي أي لا تخشونهم»[٤]، وأمام هذا الخلاف في تحديد دلالة الاستفهام يمكننا أن نقول إن الاستفهام يحتمل هذه المعاني كلها، وكأننا أمام طبقات من دلالات الاستفهام، فالخشية الحاصلة منهم تستوجب التقرير بها والتوبيخ عليها والإنكار لها، ولكن هذه الدلالة لا تنقل الاستفهام إلىٰ معناه الحجاجي الإلزامي إلا بمعنىٰ النهي عن ذلك، ولذا جاء بعدها ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فنحن أمام سلم حجاجي من خلال هذا الاستفهام يمكننا إيضاحه في الشكل التالي:

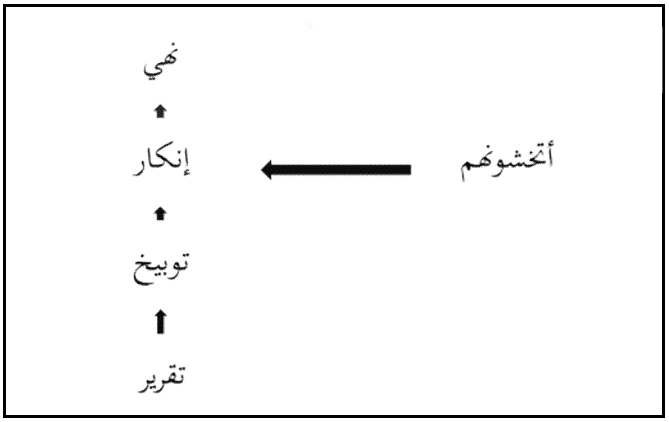

(١) انظر: البرهان (١/ ٢١٠)، والإتقان في علوم القرآن، (ص٦٣٨).

(٢) الكشاف، (ص٤٢٥).

(٣) التحرير والتنوير، (١٠/ ٣٩).

(٤) إعراب القرآن وبيانه، للدرويش، (٤/ ٦٤).

إنه من خلال حمل الاستفهام علىٰ هذه المعاني كلها ندرك كيف تدرج الخطاب من معنىٰ إلىٰ معنىٰ أعلىٰ منه في السلم الحجاجي؛ ففي أسفل السلم التقرير بالحدث الواقع منهم وهو (الخشية)، ثم الموقف الرباني من ذلك وهو (التوبيخ والإنكار)، ثم الإرشاد إلىٰ العمل والسلوك الصحيح (النهي) لينتقل الخطاب بعد ذلك إلىٰ التوجيه ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ وهذا يعد قمة الحجاج الذي حمله الاستفهام لاتساع دلالاته الحوارية والخطابية.

ومن الاستفهام المغلق الدال علىٰ النهي الاستفهام المستعمل في الدعاء كقوله تعالىٰ: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ (الأعراف: ١٥٥)؛ فالاستفهام للجحد أي لست ممن يفعل ذلك ثقة برحمة الله ﷻ والمقصود الاستعطاف والتضرع، وقيل معناه الدعاء أي لا تهلكنا[1] قال أبو السعود: «الهمزة إما لإنكار وقوع الإهلاك ثقة بالله ﷻ كما قاله ابن الأنباري، أو للاستعطاف كما قاله المبرد أي لا تهلكنا»[2] فهذه الآراء تبحث عن الدلالة العميقة للاستفهام المغلق، القائم علىٰ الدعاء (النهي) والنفي والإنكار، والآية تحتمل ذلك، بل هو الطاقة الحجاجية للاستفهام، فلدينا طلب بعدم الإهلال، ثم ثقة في رحمة الله تخرج الاستفهام إلىٰ دلالة جديدة هي نفي وإنكار الإهلاك، فنحن أمام درجتين من السلم الحجاجي داخل الاستفهام كما في هذا الشكل:

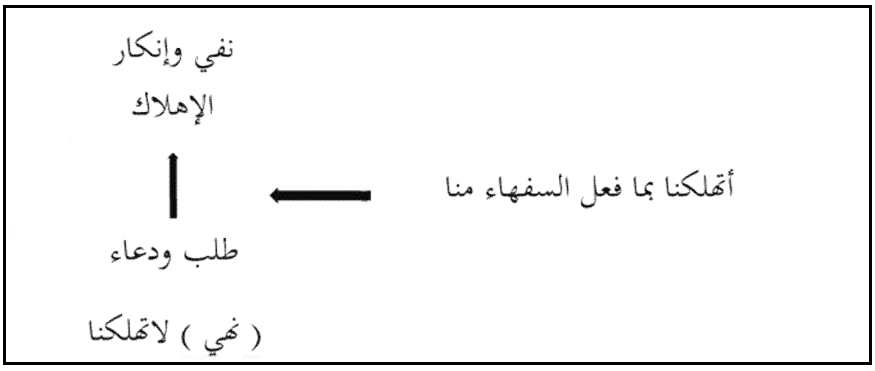

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني، (٢/ ٢٨٧).

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧).

من خلال الشكل السابق نلحظ أسفل السلم وهو ردة الفعل الأولىٰ لدىٰ المؤمن الخائف الدعاء والتضرع، ومن ثم ينتقل بذهنه إلىٰ الثقة بالله ليطمئن ويدرك رحمة الله بعدم وقوع الهلاك وهذا ما يتناسب والخطاب القرآني؛ قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦)، وفي الحديث القدسي: (ورحمتي سبقت غضبي) (١)، ومن هنا يرتفع الحجاج في قول موسىٰ عليه السلام النبي المدرك لرحمة الله ﷻ إلىٰ أعلىٰ درجة في السلم الحجاجي.

***

الخاتمة

تناول هذا البحث بالدراسة والتحليل أسلوبًا قرآنيًا مهمًا وهو الاستفهام المغلق، وذلك من خلال المقاربة الحجاجية، إبرازًا لدوره في التأثير والإقناع الذي هو من أهم سمات الخطاب القرآني الكريم، واتضحت في نهاية البحث النتائج الآتية:

١ - إن ما يتميز به الاستفهام المغلق من سمة خطابية حوارية تضمن للمتلقي المشاركة من خلال إجابته تجعل منه أسلوبًا حجاجيًا مهمًا؛ فما يقدمه المتلقي من إجابة عن الاستفهام ما هو إلا النتيجة الحجاجية التي يرمي الخطاب إلىٰ بنائها، وإلزام المتلقي بها.

٢ - إذا كان الاستفهام بطبيعته الحوارية هذه يتيح مجالًا من المشاركة فإن الاستفهام المغلق يقلل مسارات الإجابة، ويوجه الخطاب الوجهة التي يريدها المتكلم.

٣- اتضح من خلال دراسة أسلوب التقرير الطاقة الحجاجية التي يحملها هذا الأسلوب، من حيث تماهيه مع النتيجة الحجاجية، ومع قانون العبور الحجاجي، وكذلك ما يحمله من حجج مزدوجة اتضحت من خلال تحليل الآيات القرآنية الكريمة.

---

(١) الحديث متفق عليه رواه البخاري، ومسلم.

٤- برز من خلال البحث الطاقة الحجاجية التي يحملها الاستفهام المغلق في القرآن الكريم، من حيث توجيه دفة الإجابة، وإلزام المتلقي بها.

٥- اتضح من خلال دراسة الاستفهام المغلق في القرآن تآزر المقدمات الحجاجية المؤدية إلىٰ النتيجة والحجج المؤسسة علىٰ بنية الواقع مما كان له الأثر في تحديد النتيجة الحجاجية وإلزام المتلقي بها.

٦- اعتمد الاستفهام المغلق في القرآن الكريم علىٰ آليات حجاجية مساندة كالسلالم الحجاجية التي كان لها الأثر في الانتقال بالمتلقي إلىٰ قمة الاقتناع والتسليم.

٧- اعتمد الاستفهام المغلق كذلك علىٰ قوتين حجاجيتين هما: قوة المقدمات الحجاجية المسلم بها لدىٰ المتلقي، وقوة البناء اللغوي للخطاب الحجاجي الذي يستقي قوته من بناء الملفوظات اللغوية للخطاب.

وبعد هذه النتائج يمكن للباحث أن يوصي بمزيد من الدراسات لأساليب القرآن المختلفة، ومقاربتها حجاجيًا، لا سيما وأن القرآن جاء للإقناع والتوجيه من خلال البناء اللغوي المعجز، كما يوصي بتطبيق النظرية الحجاجية الحديثة في الدراسات البلاغية العربية، فإن البلاغة العربية لا تزال تمد النظرية الحجاجية بكم هائل من الأدوات والأساليب الحجاجية؛ لأن البلاغة العربية تنطلق من قدرة الكلام الحجاجية، لاسيما الكلام البليغ وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف.

***

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **الإتقان في علوم القرآن.** السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حققه: فواز أحمد مرلي، د.ط، بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي، ٢٠١٠م.
- **إعراب القرآن وبيانه.** الدرويش، محيي الدين، ط٤، بيروت: دار ابن كثير، ١٩٩٤م.
- **إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية.** الشهري، عبد الهادي، ط١، عمان – الأردن: كنوز المعرفة، ٢٠١٥م.
- **البرهان في علوم القرآن.** الزركشي، بدرالدين، د.ط، بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م.
- **بلاغة الإقناع في المناظرة.** عادل، عبد اللطيف، ط١، بيروت – لبنان: منشورات ضفاف، ٢٠١٣م.
- **التداولية والحجاج مداخل ونصوص.** حباشة، صابر، الإصدار الأول، سوريا – دمشق: صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.
- **التداوليات وتحليل الخطاب.** حمداوي، جميل، د.ط، د.م: مكتبة المثقف، د.ت.
- **تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم لمزايا القرآن الكريم.** أبو السعود، محمد بن أحمد، د.ط، بيروت – لبنان: دار التراث العربي، د.ت.
- **التفسير البياني للقرآن الكريم.** عبد الرحمن، عائشة، د.ط، د.م: دار المعارف، د.ت.
- **تفسير التحرير والتنوير.** ابن عاشور، محمد الطاهر، ط١، لبنان– بيروت: مؤسسة التاريخ، د. ت.
- **التفسير الكبير ومفاتح الغيب.** الرازي، الفخر، ط١، د.ط، د.م: دار الفكر، ١٩٨١م.
- **الحجاج أطره وتقنياته.** صولة، عبد الله، ضمن كتاب: أهم أساليب الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو غلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، د.ط، تونس: كلية الآداب منوبة، د.ت.
- **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية.** صولة، عبد الله، ط١، بيروت – لبنان: دار الفارابي، ٢٠١١م.

- **الحجاج في المناظرة مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتىٰ بن يونس.** اتزكنرمت، أحمد، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، ط١، إربد – الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.
- **دلائل الإعجاز في علم المعاني.** الجرجاني، عبد القاهر، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.
- **دلالات التراكيب دراسة بلاغية.** أبو موسىٰ، محمد محمد، ط٤، القاهرة – مصر: مكتبة وهبة، ٢٠٠٨م.
- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح.** السبكي، بهاء الدين، د.ط، بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م.
- **العوامل الحجاجية في اللغة العربية.** الناجح، عز الدين، ط١، صفاقس – تونس: مكتبة علاء الدين، ٢٠١١م.
- **فتح القدير.** الشوكاني، محمد بن علي، ط١، دمشق: دار الخير، ١٩٩٢م.
- **الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي.** ناصر، عمارة، ط١، الجزائر – الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٩م.
- **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام.** عبد الرحمن، طه، ط٥، الدار البيضاء – المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤م.
- **الكشاف.** الزمخشري، جار الله، اعتنىٰ به: خليل مأمون شيحا، ط٣، بيروت – لبنان: دار المعرفة، ٢٠٠٩م.
- **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي.** عبد الرحمن، طه، ط٣، الدار البيضاء – المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.** ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، د.ط، د.م: دار ابن حزم، د.ت.
- **المستدرك علىٰ الصحيحين.** الحاكم، محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، د.ط، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت.

- **المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم.** التفتازاني، سعد الدين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط٢، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
- **المظاهر اللغوية للحجاج.** الراضي، رشيد، ط١، الدار البيضاء - المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤م.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن.** السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، ضبطه: أحمد شمس الدين، ط١، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
- **معجم البلاغة العربية.** طبانة، بدوي، ط٣، الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٨م.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.** ابن هشام، عبد الله جمال الدين، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، د.ط، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٧م.
- **مفتاح العلوم.** السكاكي، أبو يعقوب يوسف، ضبطه: نعيم زرزور، ط٢، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
- **من الاحتجاج بالعواطف إلىٰ الاحتجاج للعواطف.** عبيد، حاتم، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، علوي، حافظ إسماعيل، ط١، إربد - الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.
- **من بلاغة القرآن.** بدوي، أحمد، د.ط، الجيزة - مصر: الإدارة العامة للنشر، ٢٠٠٥م.
- **نظرية في الحجاج.** صولة، عبد الله، ط١، تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
- **نظرية الحجاج في اللغة.** المبخوت، شكري، ضمن كتاب أهم أساليب الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، صمود حمادي، د.ط، تونس: كلية الآداب منوبة، د.ت.

*** الدوريات:**

- **تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب.** العبد، محمد. مجلة فصول - القاهرة - العدد ٦٥. خريف ٢٠٠٤م - شتاء ٢٠٠٥م. ص ص ١٣٤ -١٦٣.

* * *

Bibliography

- The Holy Quran.
- Al-Itqan fi Ulum al-Qur'an, Jalal Al-Din Abdel Rahman Al-Suyuti, achieved by Fawaz Ahmed Marli, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut - Lebanon 2010.
- I'rab al-Qur'an wa Bayanih, Mohieddin Darwish, Dar Ibn Katheer, Beirut, Fourth Edition 1994.
- Istratigiat Alkhitab (Discourse strategies, a Pragmatic Linguistic Approach), Abdel Hadi Al-Shehri, Kunuz Almaerifa, Amman - Jordan, First Edition 2015.
- Al-Burhan fi 'Ulum al-Qur'an, Badr Al-Din Al-Zarkashi, Al-Asriya Library, Beirut - Lebanon 2009.
- Balaghat Aliqna? Fi Almunazra (The Rhetoric of Persuasion in the debate), Abdel Latif Adel, Difaf Publications, Beirut - Lebanon, First Edition 2013.
- Attadawlia wa Alhijaj (Pragmatics and Argument - Introductions and Texts), Saber Habasha, Safahat for Studies and Publishing, Syria - Damascus, First Edition 2008.
- Attadawliat wa Tahlil Alkhitab (Pragmatics and Discourse Analysis), Jamil Hamdawi, Al-Muthaqaf Library, undated.
- Tafsir Abi Assaud (Interpretation of Abi Al-Saud, entitled: Guidance of a sound mind on the merits of the Noble Qur'an), Muhammad bin Ahmed Abu Al-Saud, Dar Al-Turath Al-Arabi, Beirut - Lebanon, undated.
- Al-Tafsir Al-bayani Lil-Qur'an Al-karim, Aisha Abd al-Rahman, Dar al-Maarif, undated.
- Tafsir Al-Tahrir Wal Tanwir, Muhammad Al-Taher Ibn Ashour, History Foundation, Beirut - Lebanon, First Edition, undated.
- Al-Tafsir al-Kabeer wa Mafatih al-Ghayb, Al-Fakhr Al-Razi, Dar al-Fikr, First Edition 1981.
- Alhijaj Ottrahu wa Taqniatahu (Argument Frameworks and Techniques), Abdullah Solah, in the book: The Most Important Methods of Argument in the Western Tradition from Aristotle to Today, University of Arts and Humanities, Tunis - Faculty of Arts - Manouba, undated.
- Alhijaj fi Alquran (The argument in the Qur'an through its most important stylistic characteristics), Abdullah Solah, Dar Al-Farabi, Beirut - Lebanon, 2011.
- Alhijaj fi Almunazra (Argument in the Debate: An argumentative approach to the debate of Abu Saeed Al-Sirafi with Matta bin Yunus), Ahmed Etzkinramt, in the book: Argument's Concept and Fields, Modern Book World, Irbid - Jordan, First Edition 2010.
- Dal'il Ali?jaz (Evidence of Miracles in the Science of Meanings), Abdel-Qaher Al-Jurjani, investigated by: Abdel-Hamid Hindawi, Dar Al-Kutub Al-Ilmia, Beirut - Lebanon, First Edition, 2001.
- Dilalat Attarakib (Semantics of Structures, a Rhetorical Study), Muhammad Muhammad Abu Musa, Wahba Library, Cairo - Egypt, Fourth Edition 2008.
- Arus al-afrah fi sharh Talkhis al-miftah, Bahaa El-Din Al-Subki, Al-Mataba Al-Asriya, Beirut - Lebanon 2009.
- Al?awamil Alhijajia fi Allugha Alarabia (Argumentative Factors in the Arabic Language), Izz El-Din Al-Najah, Alaa El-Din Library - Sfax 2011.

- Fath al-Qadir, Mohammed bin Ali Al-Shawkani, Dar al-Khair, Damascus, First Edition 1992.
- Alfalsafa wa Albalagha (Philosophy and Rhetoric, an Argumentative Approach to Philosophical Discourse), Amara Nasser, Difference Publications, Algeria - Algeria, First Edition 2009.
- Fī Usūl Al-Hiwār wa Tajdīd ?ilm Al-Kalām, Taha Abdel Rahman, Arab Cultural Center, Casablanca, Morocco, Fifth Edition 2014.
- Al-Kashshaf, Jarallah Al-Zamakhshari, investigated by: Khalil Mamoun Shiha, Dar Al-Maarifa, Beirut - Lebanon, Third Edition 2009.
- Al-Lisān wa-l-Mīzān aw al-Takawthur al-ʿAqlī, Taha Abdel Rahman, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Third Edition 2012.
- Al-Muharrir Al-Wajiz Fi Tafsir Al-Kitab Al-Aziz, Abu Muhammad Abdul Haq Ibn Attia, Dar Ibn Hazm, undated.
- Al-Mustadrak ala al-Sahihayn, by Muhammad bin Abdullah Al-Hakim, studied and investigated by: Mustafa Abdel-Qader Atta, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut - Lebanon, undated.
- Al-Muttawal Sharh Talkhis Miftah Al oloom, Saad Al-Din Al-Taftazani, investigated by Abdul Hamid Hindawi, Dar Al-Kutub Al-Ilmia, Beirut - Lebanon, Second Edition 2007.
- Almazahir Allughawia Lilhijaj (Linguistic Aspects of Argument), Rashid Al-Radi, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, First Edition 2014.
- Mu?tarak Al aqran Fi I?jaz Al Quran, Jalal Al-Din Abdel-Rahman Al-Suyuti, investigated by: Ahmed Shams Al-Din, Dar Al-Kutub Al-Ilmia, Beirut - Lebanon, First Edition, 1988.
- Mu?jam Albalagha Alarabia (Dictionary of Arabic Rhetoric), Badawi Tabana, Dar Al-Rifai - Riyadh, Third Edition, 1988.
- Mughni Al-Labib ?an Kutub Al-A?arib, Abdullah Jamal Al-Din Ibn Hisham, investigated by: Muhammad Muhyi Al-Din Abdul Hamid, Al-Mataba Al-Asriya, Sidon - Beirut 1987.
- Miftah Al-Ulum, Abu Yaqoub Yousef Al-Sakaki, investigated by: Naim Zarzour, Dar Al-Kutub Al-Ilmia, Beirut - Lebanon, Second Edition 1987.
- Min Al-ihtijaj bi Al-?awatif 'iilaa Al-ihtijaj lil ?awatif, Hatem Obaid, in the book: Argument's Concept and Fields, Modern Book World, Irbid - Jordan, First Edition 2010.
- Min Balaghat Al-Qur`an, Ahmed Badawi, General Administration of Publishing - Giza 2005.
- Nazaria fi Alhijaj (A Theory in Argument), Abdullah Soula, Meskiliani for Publishing and Distribution, Tunis, First Edition 2011.
- Nazariat Alhijaj fi Allugha (Argument's Theory in Language), Shukri Al-Mabkhout, in the book: The Most Important Methods of Argument in the Western Tradition from Aristotle to Today, University of Arts and Humanities, Tunis - Faculty of Arts - Manouba, undated.

*** Periodicals:**

- Ta?dil Alqowa Alinjazia (Adjustment of Achievement Force: A Study in the Pragmatic Analysis of Discourse), Muhammad Al-Abd, Fosoul Journal, Issue 65